من أساطير الهند

شاد لهـــا الحب لؤلؤة

[بتصرف عن اج . جى . ولز H. G. Wells]

للأستاذ إبراهيم العريض

إنى لا أستطيع أن أحكم لنفسى فى الخلاف الناشئ منذ العصور حول هذه القصة . أهى أشد القصص مرارة فى الحب ، أم إنها مثل رائع لخلود الحسن ؟ فالقصة وما دار حولها من نقاش بات فى علم أولئك الذين يدرسون الأدب الفارسى فى العصور الوسطى .

إنها أقصوصة جد قصيرة . وإن كانت شروحها قد شغلت حيزاً كبيراً من أدب ذلك الجيل المتنور ، فحسبها بعضهم خيالا شعريا ، واعتبرها آخرون رمزية ، فكثرت فى مغزاها الأقاويل ؛ وذهب رجال اللاهوت فيها مذاهب شتى ، واهتموا منها فى الأخص بالجانب المتعلق بالبعث بعد الموت ؛ وضرب رجال الأخلاق بها الأمثال ، واتخذوها موضوعا للعبرة . وهناك غيرهم من لا يرى فيها إلا الحقيقة عارية من كل لبوس .

اج . جى . ولز

جلَوْها له فى نقابِ الجمالِ عروسًا أتمَّ الصِّبا عامَها
وكانَ قريباً بعهدِ الطُّفولـ ـةِ لمَّا تتـــوَّج إذْ رامَها
خلَتْ على قلبِه كالشُّعاعِ ترى عينُه فيـــهِ أحلامَها
سل الزهرَ عن ضحكِها عندَ ما تُفتحُ القطـــلُ أكمامَها
سل الطيرَ عن نُطقِها عند ما تبثُّ مع الفجْـــرِ أنغامَها
وما حكَتا من معانى الفتو نِ ما يُلْهِمُ الشِّعْرَ إلهامَها
وما شَرِقَتْ عينُها بالسُّرورِ فتنفُضَ من خمْرِه جامَها
إذا خطرتْ شذَّ بينَ القلو بِ من لا يُبارِكُ أقدامَها
وكانت يدُ الحكمِ عن أمْرِه تُنفذُّ فى الخلْقِ أحكامَها
فعاشَ لإمتاعها بالوُجودِ ونوَّر بالحبِّ أيَّامَهـــا

* * *

وعاشتْ وإيَّاهُ فى روْضةٍ من الحُبِّ أفنانُها دانيَهْ
إذا عادَ من هَمِّه بالتها رِ ألْفَى لديْها المُنى غانيه
فَمِجْمرةُ العودِ فى جانبٍ ومِعْزفةُ العودِ فى ناحيه
ومِن حولِ هاتَيْن شفَّت ستائِـــرُ عن كلِّ نُمْرقةٍ غاليه
وقد عقدَ الوردُ حولَ السري رِ من مثْلِ ألوانِها حاشيه
فتُسرعُ باسمـــةً نحْوه وتأخذُ يُمناه كالشاكيه
وتهْوِى به بينَ تلكَ الظِّلالِ وتبْقَى الظِّلالُ على ما هِيه
فلا تسْمَعُ الأذنُ غيرَ الصَّدى صدى الرُّوحِ تهفو إلى ثانيه
ولاَ تُبْصِرُ العينُ إلاَّ يداً تمرُّ برِفْقٍ على ناصـــيه
إلى أن تذُوبَ الشِّفاهُ التى تُناغِيهِ فى همْســـةٍ خافيه

* * *

وكانت قِصاراً ليالى الهناء ولـكنَّها ازْدهرتْ كاملَهْ
فلمْ يشْعُرا بحُدَاءِ الربيعِ ولا كيفَ مرَّتْ بهِ القافله
وحلَّ الخريفُ لتنْعَى الطيورُ إلى الروْضِ أوراقَه الهاطله
تبدَّلَ فى عيْنِها كلُّ لونٍ فيالكِ مِنْ صُفْرةٍ قاتلَهْ
فهامتْ فرادَى على وجْهِها وكانت تقِـــرُّ معًا نازِله
وماذا تؤمِّلُ بينَ الغُصُون وقد تركَتْها الصَّبَا عاطله
على كلِّ صَاوٍ لها رَنَّةٌ تُسائله ، لو وعَى سائلَه
وأمْسى أديمُ الثرَى صورةً لِما رَسَمَتْهُ الخُطا العاجله
ومن بينِ مِنْ شيَّعَتْها الطيورُ إلى عالَمٍ لا ترَى ساحلَه
على صِغَرِ السِّنِّ بين الحسا نِ زهْرَةُ آمالِهِ الذابـــله

* * *

وأدْمَى المُصَابُ فؤادَ الأميرِ وأفقدَهُ رُشْـــدَهُ فى أساهْ
فظلَّ ثلاثاً بلا بُلْغـــةٍ وقد برِمَتْ نفسُه بالحياه
يلوحُ لنـــاظِره طيْفُها فيجْزَعُ من دمْعِه إن سحاه
ويضحكُ مِنْ قلْبِهِ ساخِرًا إذا لم يرِنَّ اسْمُها فى صداه
وكم أطْرَقَ الرأسَ حتَّى إذا أحَسَّ بذلكَ جُنَّتْ يداه
وكم لبِثتْ عينُهُ فى الظلام شاخِصَةً لا ترى ما يراه

وتلى عَلَى صَوْمِهِ رَابِعٌ ... وما زال جُثْمَانُهَا فِي كراه
فلم يجْتَرِئْ أَحَدٌ بَعْدُ أَنْ ... يوارِيَ هَيْكَلَهَا فى ثراه
تُمِدُّ النِّسَاء عليها الحريرَ ... فيحسَبْنَهُ قائماً فى صلاه
إلى أن تمثلَهَا فِكْرَةٌ ... فقرَّرَ تنفيذَها ، فى ضحاه

* * *

فأصدرَ أمرًا إلى شعْبِه ... دعا فيه بادِيَهُمْ والحَضَرْ
فما خطرَتْ قبْلَه فِكرَةٌ ... كتِلْكَ ببالِ جميعِ البشر
ووافاهُ مِنْ كلِّ فجٍّ عَمِيقٍ ... بُراةُ الدُّمَى والفنُونِ الأُخر
وتمَّ له من مُعِدَّاتِهِمْ ... وأسبابهم ما اقتَضَاهُ الأثر
فصبَّ لتابُوتِهَا فِضَّةً ... وزخْرفَ أطرافَه بالصُّوَر
وقوَّمَ بالعاجِ أركانه ... وزانَ قوائمَه بالدُّرر
وشادَ على قُدْسِهِ حَضْرَةً ... بناها من المرمرِ المُحْتَفر
وقدَّرَ شُبَّاكَهَا صَنْدَلاً ... وجَمَّلَ كِسْوَتَه بالطُّرَر
وقامت له شُرْفَةٌ فى البِنا ... ءِ مقصُورَةٌ غُلِّفَت بالسُّتُر
فكانَ يُفارِقُهَا بالعِشاء ... ويأتى لزَوْرَتِهَا فى السَّحر

* * *

ومرَّتْ سِنونَ على صرْحِه ... وما زالَ يعْملُ فى شانِهِ
يُحِسُّ إلى حُبِّهَا فى الضُّلو ... عِ كالبحرِ يغْشَى بطُوفانه
فيَسْعَى ليُعْلِنَهُ للأنامِ ... ولا يستريحُ بإعْـــلانه
وتلكَ التى أجَّجَتْ قلْبَهُ ... فأغرتْ حَشاه بطُغْيانه
فنى طَرْفِهِ أبداً حَـــيْرَةٌ ... إذا جالَ فى حُسْنِ بُنيانه
فكم عاودَتْ يدُه بالصلا ... حِ شَكْلاً يُدِلُّ بإتقانه
وكم أعْجَبَ الناسَ ما شادَهُ ... وأنكرَه هُو فى آنِه
فهدَّم من سقْفِه ما اسْتقرَّ ... وبدَّل هيْئَـــةَ أركانه
وفى البدْءِ كانتْ له نزْعَةٌ ... إلى المُسْتقـــلِّ بألوانه
فخفَّفَ حِدَّتَهَـــا تَوْقُه ... حَدِيثاً لإظهـــار سُلْطانه

* * *

مضى فى التطوُّرِ ذاكَ البِناء ... ومهَّـــدَ أوَّلُهُ آخِرَهْ
فيأخذ إيوانُه فى اتِّسَاعٍ ... تحيط السوارى به دائِره
وتلكَ هِيَ النارُ فى صدْرِه ... ولكِنها التهبَتْ زاهره
فنى كلِّ رُكْنٍ لها آيَةٌ ... تُحَدِّثُ عن حُسْنِها شاعِرَه
لقد كانَ يُرْضِيهِ منها البَهاء ... فأصْبَحَ لا يرْتضِى الباهره
وأكْسَبَهُ ضرْبُه فى الفنُو ... نِ ذوْقاً هدَى فِطْرَةً طائِرَه
ليختارَ من وحْيِها ما يَجِلُّ ... ويُهْمِلَ عن عَمْدٍ سائِرَه
فكم شُرْفَةٍ أثْقلَتْهَا النُّقو ... شُ ردَّ سُرادِقَها حاسره
لِتَنْهَضَ من فوْقِها قُبَّةٌ ... تُخالُ السماء بها غائره
يغيبُ عن الحسِّ مَنْ زارَها ... ويَشْهَدُ فى ظلِّها الآخره

* * *

تهلَّل بالحُسْنِ وجهُ الضريحِ ... وقامتْ منائِرُه باتِّزانْ
تُطِـــلُّ على أثَرٍ للخلُو ... دِ قامَ على آخرٍ وهْو فانْ
وكانت تجيء إليهِ الوفود ... تُبارِكُ سُمْعَتَـــهُ بالعِيان
فتَشْـــدُو أدِلاَّؤُهُمْ بالتى ... على حُسْنِها عُقِدَ المهْرَجانْ
وكيفَ قضتْ فى صِباها فشادَ ... لها الحُبُّ لُؤْلُؤَةً فى الزمان
فتَخْشَعُ أطْرَافُهم للمكينِ ... وتخْفِتُ أصواتُهم فى المكانْ
وكم شاعرٍ هائمٍ فى الخيالِ ... تمثَّلَها فبكَى من حنان
وحسناء تحْبِسُ أنفاسَها ... لعاقبةٍ ـ مِثْلَهَا ـ فى الحسان
وَعَاشَ الأميرُ على عَهْدِهِ ... يقومُ لها كلَّ يومٍ بشان
وَمِنْ حَوْلِهِ مُلْهِمَاتُ الفُنُونِ ... تَرِفُّ على قلْبِهِ بالأمانِ

* * *

وَأَمْسَى بشَيْبَتِهِ ذَاتَ يومٍ ... تُنَادِمُه روحُهـــا الساريَهْ
يرى الوافِداتِ إلى قبْرِها ... وهُنَّ يزَغْرِدْنَ فى عافيه
فيُمْلِى لهُنَّ ما قدْ أتمَّ ... وَيَذْكرُ ما لم يَكُنْ ناسِيَه
لقد لبِسَ الصرْحُ هذا الجلالَ ... بأشرافِ قُبَّتِـــه العاليه
ولم يبْقَ ركنٌ على حَجْمِه ... سِوَى موْضعِ التُّربة الزاكيه
ونظْرَتُه ترْتمى فى البِنَاء ... فتسْبحُ فى جَوِّهِ صافيـــه
ولكِنها كلَّما راجعَتْ ... سوارِيَهِ ... سارِيَهْ سارِيه